الباب السابع عشرين

تولية الحاج محمد الثانى

والحاج ابنه [1] هو أكبر أولاده يومئذ هنالك ، فتحزَّم وركب حصانه ، وركب إخوانُه كلُّهم خلفه ولكن غير دانين منه ، وليس له مثل يومئذ فى أهل سغى كافة فى النجدة ، والشجاعة ، والصبر ، والتحمُّل . وقال : منْ حضرهم هنالك من أصل العقل والمعرفة ساعتئذ يستحق أنْ يكون أميرًا ولو فى بغداد . وقيل : اثنان من سلاطين سغى أكبر من سلطنتهم الأمير الإسكيا الحاج محمد ، وحفيده سميه إسكيا الحاج محمد بن إسكيا داود . واثنان استويا بها إسكيا محمد بنكن بن فرن عمر كمزاغ ، وإسكيا إسحق ابن إسكيا داود ، والباقون سلطنة سغى أكبر منهم .

فلما ركبوا عند مسيرهم لكاغ خرج حامد من بين إخوانه ، وتقدم إليه فأخذ يساره ، ويقول له : اقبض فلاناً ، وفلاناً ، وفلاناً . ففطن إخوانه لا يتكلم إلا بالنميمة ، ثم رجع لمركبه فتقدم إليه الهادى . فقال : لا تتبع كلامَ هذا النمام ، ولا تعمل العار لأحد فلا لك منازعٌ هنا ، ولا تتبع إلا الأكبر . فالأكبر إنْ كان محمد بنكن حاضراً هنا اليوم لا يصل إليك هذا الأمر .

وإنْ كنتَ غائباً اليوم وحضر هذا النَّام القليل البركة ، لا نجاوزه به . فقال : أنا وفعل العار فيكم بعيد ، لأن أباكم أودعكم علىَّ ، مع أن هذا الأمر قد فات اليوم ، الذى أريد أنْ أكون فيه وهو حياة أعمامى ، وأقرانى الذين هم أسنَّ منى ولولا أن الدهر هو الذى أوجب علىَّ قعود تلك العتبة اليوم ، لا أقعد عليه .

فلما دخلوا البلد ، وفرغوا من دَفن والدهم بايعه القواد ، والأجناد ، وسائر الخلق ، والعباد فى سابع عشرين رجب المذكور ، ولكن ما دخل فيه إلا وهو عليلٌ بعلة القروح فى أسفله ، فمنعته التصرف فى نفسه حتى لم يغز ، ولو مرة واحدة إلى أنْ تُوفّى .

---

(١) الحاج محمد الثانى : تولى الحكم فى عام ١٥٨٢ - ١٥٨٦م . وقد اشتهر بالشجاعة ، وحب العدل . وقام بتعيين إخوته فى المناصب الإدارية ولكنهم تمردوا ، وأعلنوا الثورة عليه . وتمكَّن من القضاء على ثورتهم .

ولما بلغ فرن محمد بنكن خبر مرضه توجَّه إلى كاغ ، وحين وصل تنبكت سمع خبر وفاته ، وولاية أخيه إسكيا الحاج محمد . رجع وتأخر فى أككن ثلاثة أيام ، ثم مشى فى طريق جمالن ، ونزل فى دبوس ، ثم مشى ووصل داره ، ثم جهَّز جيشاً ، وعزم على الوصول إلى كاغ للقتال .

فلما دخل تنبكت ذهب إلى القاضى برسم السلام ، ولا علمَ عند أحد من الجيش إذ سمعوا أنه حين قعد عند القاضى طلب حرمته أن يكتب لإسكيا أنه سلم فى رياسته، وأنه يريد المُكْث فى تنبكت لطلب العلم ، فلما سمعوا ذلك هرب الجميع ساعتئذ ، وتوجَّهوا لكاغ عند إسكيا فكتب القاضى ، وقَبلَ إسكيا ، وولى أخاه الهادى بن إسكيا داود سلطنة كرمن . وفعل أخاه المصطفى فارى منذ وبقى هو فى تنبكت فى تلك الحال.

ثم إن كبراء الجيش رأوْا فيما بينهم أن بقاءه فى تنبكت لا تصير عاقبته إلى خير لهم، ولإسكيا فاتفقوا وجاءوا إليه ، وقالوا : نختار أنفسنا عنك ، وعن أخيك محمد بنكن وكونه فى تنبكت لا نقبله ، لأن مراسلينا لا ينقطعون عنه لقضاء حوائجنا فيه ، ولا يرجع النمامون يقولون إذا رأوا مرسول أحدنا توجَّه إليه هامر سول فلان مشى إلى عند محمد بنكن .

فسمع كلامهم ذلك ووعاه وأرسل أمر ابن إسحق بير إسكيا مع أناس فى قبضه فى تنبكت ، وأمره أن يسجنه فى كنت فوصلوه فى قائلة من النهار نائماً فى داخل البيت ، وحصانه مربوط فى صَحنه وعنده عبيده الذى يخدم الحصان .

فطلعوا من فوق حائط البيت على خيلهم متلثمين بعمامات سود متحزمين على قفاطين سود ، فرمى الحصان أمر المذكور بحريش لكى يموت لئلا يركبه محمد بنكن ويقاتلهم ، فتحرَّك الحصان فى مربطه تحريكاً شديدًا حتى أيقظه من النوم ، فسأل العبدُ عن تحريكه فأخبر بما جرى علم أنه أمرٌ من الإسكيا فمات الحصان وقبضوه وأنفذوا أمرهم فيه ، وبقى فى كنت إلى ولاية إسكيا محمد بان .

وبقى أولاده الثلاثة : عمر بير ، وعمركت ، وينب كيزاجى . مُتخفِّين خائفين من الإسكيا الحاج إلى انقراض دولته وانقراض دولة الإسكيا محمد بان ، وقبل دخول إسكيا إسحق أظهروا أنفسهم ، وبقوْا يطلبون أمر المذكور ليقتلوه فى تلك الفترة .

ففطن واختفى فى الزمرة التى يقال لها سوما . وهم الذين يحضرون دخول إسكيا حتى يدخل ، وعادتُهم لبس البرانيس ، فلبس هو البُرنُس معهم حتى دخل إسكيا إسحق فخرج حينئذ ، لأن الفتنة سكنت ولا يقدر أحدٌ أنْ يتعدَّى على أحد .

ثم إن بكر بن إسكيا محمد بنكن لَمَّا سمع بولاية إسكيا الحاج محمد خرج من أرض كل مع ابنه مربا ، فقدم كاغ فأكرمه إسكيا الحاج وجعله باغن فارى ، فرجع إلى تندرم وهو محسوبٌ فى جيش كرمن مع ابنه المذكور عزيزًا مُكرَّماً ثم ذكر لإسكيا الحاج أن فندنك بوب مريم حلف أن رأسه لا يدخل فى باب الدار أبدًا ، فأرسل لباغن فارى بكر أنْ يسير إليه بالتدبير والكياسة حتى يقبضه ويأتيه به ، بحيث لا يفطن فيهرب ففعل ذلك وقبضه وأتاه به .

فلما امتثل بين يديه وهو مُقيدٌ بالحديد ، فقال له : يا بن مريم أنت الذى حلفت أن رأسك لا يدخل فى الباب أبدًا . فقال له : لا تعجل علىَّ بارك اللهُ فى عمرك حتى أتكلم . فقال له : تكلم . فحلف بالله تعالى أنه ما تكلم ، والأعداء الذين لا يريدون لى إلا الموتَ هم الذين يقولونه علىَّ ، وأين أذهب فأفوتك فأمر بإمضائه .

وتأخر زماناً ولا يدرى أحدٌ من الناس أين هو ، حتى ظنوا أنه فارقَ الدنيا إلى يوم واحد أمر بإحضاره وقال له : أريد أنْ أردك لسلطنتك فجازه بخير ، ودعا له ، وأكثر فى الدعاء . وقال : إنْ خيَّرتنى لأبغيها . فقال : وما تبغى ؟ قال : أنْ أكون عندك هنا وأخدمك . فعظَّمَ ذلك عليه وأعطاه من أجله عشراً من الخيل ، وخُداماً كثيرين ، ودارًا . وأعطاه من كلِّ الخير ما هو المُنَى والبغية ، فبقى فى كاغ عزيزًا مُكرّماً ، وولى حمد منة مقامه لأهل ماسنة .

(حوادث ٩٩١هـ)

وفى يوم الأحد آخر وقت الضحى الحادى عشر يوماً من رجب عام أحد وتسعين بعد تسعماية . تُوفِّى القاضى العاقب بعد أنْ ملأ أرضه بالعدل ، بحيث لا يُعرف له نظيرٌ فى ذلك من جميع الآفاق ، ومكث فيها ثمان عشرة سنة ، وبين وفاته ووفاة إسكيا داود ثلاثة عشر شهراً .

وفى ليلة الاثنين السابعة عشر من شعبان فى هذا العام تُوفى الفقيه المحدِّث أبو العباس أحمد بن الحاج أحمد بن محمد أقيت [1] رحمهم الله تعالى أجمعين .

وبقى القضاءُ فى تنبكت سنة ونصفاً بعد وفاة القاضى العدل العاقب ما تولاها أحدٌ لأن الإسكيا الحاج أرسل فى ذلك للعلامة الفقيه ابن حفص عمر بن الفقيه

---

(١) أحمد بن محمد بن أقيت : كان من علماء الفقه واللغة ، تولى قضاء مدينة تنبكت ، ويُعتبر من تلاميذ الإمام جلال الدين السيوطى ، والشيخ خالد الأزهرى . وقد تولَّى بجانب القضاء التدريس . توفى عام ٩٤٢هـ/ ١٥٤٣م . انظر : التنبكى مصدر سبق ذكره . ص : ١٣٧ .

محمد ما قبلها مرتين وثلاثاً ، والفقيه محمد بغيغ الونكرى ، هو الذى يفصل بين المولدين والمسافرين ، والمفتى الفقيه أحمد معيا هو الذى يفصل بين أهل سنكرى .

ولمَّا طال الحالُ بعث الشيخ المبارك ، الفقيه صالح تكن لإسكيا سرًا أنْ يكتب له، إذا لم يقبلها يُوليها لجاهل فكلِ ما حكم لا يسأل به اللهُ تعالى عنه إلا إياه غداً بين يديه، فلما قرأ الكتاب بكى وقَبِلَ فتولاها فى آخر يوم من المحرم فاتح سنة ثلاث وتسعين وتسعماية ومكث فيها تسع سنين كاملاً .

وفى سنة اثنتين وتسعين وتسعماية خرج كارمن فارى الهادى من تندرم فى صفر عازماً إلى كاغ لأجل الفتنة وأخذ السلطنة . وقيل : إن إخوانه الذين كانوا فى كاغ عند إسكيا هم الذين أرسلوا له سرًا أن إسكيا الحاج ما بقى فيه جهدٌ أنْ يعزم ويقدم لدخول السلطنة . ثم عذروه وسلَّموا فيه .

فلما وصل كبر أرسل رسوله إلى الفقيه عمر برسم السلام ، ولم يجيء هو بنفسه كما هو عادته ، ثم مشى فى طريقه فتلقَّاه رسلُ إسكيا الحاج قبل أنْ يصل .

فطلبوا منه أنْ يرجع فأبَى ، ورجعوا وأخبروه بخبره ، فوصل كاغ ليلة الاثنين رابع ربيع الأول وعليه الدرع ، وبين يديه بُوقاته وطبله وغير ذلك . فخاف منه إسكيا خوفاً عظيماً ، لأنه مريضٌ عاجز لا يقدر على شيء ، فقال له هيكى بكر شيلى أجى : ولِّنى سلطنة دند الآن أقبضه لك فولاه إياها ، لأنه منذ تُوفى دند فارى بان فى زمنه ما ولاها أحدٌ ، فقام فى الحال ونصح .

فجاء إليه إخوانه الذين كانوا هنالك يومئذ منهم صالح ، ومحمد كاغ ، ونوح وغيرهم على أرجلهم . فقالوا له : ما أتى بك هنا ، وما تريد ، ومنْ شاورت ومنْ اتفق معك عليه ، وما ذلك إلا أنك حسبتَ جميع من هنا نسواناً انتظرنا هاهنا حتى ترى ما عندنا ، فرجعوا وتحزَّموا وركبوا خَيْلهم وأبوا عازمين على المقاتلة معه . فقال له الناس : اذهب إلى دار الخطيب حتى يصالح بينك وبين إسكيا .

فدخل فى داره ، فلما سمع إسكيا بدخوله خرج ساعتئذ ، وأمر بإمساكه من هناك ، وبإتيانه بين يديه . فأمر بنزع ما عليه ، فوجد درعًا من حديد . فقال له هادى: ما أنت إلا كفورٌ . فبكى فارى مند المصطفى بكاءً شديداً . فقال : ما هكذا أتمنى لرئيسنا هذا ، والذى أتمناه أنْ تجعلنا وراءه إلى صاحب موش ، أو إلى صاحب بص . أخذ يُعدِّد السلاطين منتظراً كيف نعمل لهم معه . وفارى مند المذكور شقيق إسكيا الحاج ، ولولا ذلك ما يقدر على ذلك العمل .

ثم أمر بإتيان حصانه الذى هو عليه ، فلما رآه وقلبه قال ما جرّأ أخى هادى على الفتنة إلا هذا الحصان ، أمر بإدخاله اسطبله ، وقد خصَّه اللهُ تعالى بمعرفة الخيل ، وضرب كثيراً من أتباعه . وأما خاله رأس الفتنة فمات تحت ذلك الضرب ، ونهبوا جميع ما معهم ، بإذهابه إلى كنت برسم السجن .

وولى كلشع محمد قاى بن دنكلك مقام هيكى بكر شيلى أجى ، فكان هيكى فأمره أنْ يولى فى مقامه الذى نزل منه مَنْ أحب ، فولى ابنه أبو بكر فكان كلشع ، وولى أخاه حامد مقام بلمع [1] محمد وعو بعد موته فكان بلمع .

(هدايا سلطان مراكش لصغى)

ثم أرسل السلطان مولاى أحمد الشريف الهاشمى [2] رسوله إلى الإسكيا الحاج بهدايا عجيبات له ، وقَصْده فى ذلك الاطلاع على حال بلاد التكرور ، لأنه عزم على بعث رسوله إلى كاغ فتلقيا إسكيا بالإكرام ، وأرسل له عند رجوع رسوله أضعافَ ما أرسل هو من الهدايا من خُدام ، وسنانير الغالية . وغير ذلك . ومن جملة ما أرسل ثمانون خصياً .

(المحاولة الأولى لغزو صغى فى عهد الشريف الهاشمى)

وبعد ذلك وردت الأخبار أنه بعث جيشاً فيه عشرون ألفاً رجالاً إلى جهة ودان ، وأمرهم بأخذ ما هنالك من البلدان على شاطيء البحر وغيرها حتى يصلوا إلى بلاد تنبكت ، فتخوَّف الناسُ من ذلك غايةَ الخوف .

ثم شتَّتَ اللهُ ذلك الجيش بالجوع والعطش ، فتفرقوا شذر مزر ، ورجع ما بقى منهم إليه ، وما قضوا شيئاً من مراده بقدرة البارى تعالى ، ثم أرسل قائدًا ومعه مائتا رام إلى تفاز ، وأمرهم بأخذ أهله ، فسمعوا به قبل وصولهم فخرجوا منه هاربين ، منهم مَنْ مشى إلى الحمدية ، ومنهم منْ مشى إلى توات وغيرها . وما وصل القائد والرماة إلا خالياً ، ليس فيه إلا نفرٌ يسيرٌ فذهب أعيانهم إلى إسكيا ، وذكروا له ذلك فاتفق معهم على أنْ يمنعوا رفود الملح منه .

---

(١) بلمع : لقب يُطلق على أمين عام السلطنة ، وهو من المناصب المخصَّصة لأسرة الأساكى .

(٢) أحمد الشريف الهاشمى : هو سلطان دولة الأشراف السعديين ، ويُلقّب بأحمد المنصور الذهبى . انتصر على الإسبان والبرتغاليين فى موقعة وادى المخازن .

وفى سنة أربع وتسعين وتسعماية فى شوال جاء الخبر ، بأنْ لا يذهبَ أحدٌ إلى تفاز، فمنْ مشى إليه فماله هدر ، ثم أن أظل ما صاب الصبر عن الملح ، فتفرقوا فمشى بعضهم إلى تنورد ، وحفروا الملح فيها بهذا التاريخ وآخرون إلى غيرها ، وتركوا تفاز هذه المدة .

فرجع القائد والرماة إلى مراكش ، وفى هذا التاريخ أيضاً أخذ عمه سليمان كنكاك بنك فرم ، فولاها محمود بن إسكيا إسماعيل . وفى شهر ذى الحجة مُكملة هذه السنة خالف عليه إخوانه ، وذهبوا إلى كرى عند محمد بان بن إسكيا داود . فجاؤوا به معهم ، وأقلعوا الإسكيا الحاج ، وولوْه إسكيا فى الرابع من المُحرّم فاتح سنة خمس وتسعين وتسعماية . ومكث إسكيا الحاج فيها أربع سنين ، وخمسة أشهر وبعد ذلك بأيام يسيرة توفى .